مآوى الأطفال

منشآت ضرورية للحاضر والمستقبل

حدثني زميل توفيت زوجته وخلفت له طفلين أحدهما رضيع والآخر في سن الطفولة الأولى ، عن حيرته بهذين الطفلين بعد وفاة أمهما ، ولا سيما بالطفل الرضيع منهما ، فهو لا يستطيع أن يترك عمله وينفق وقته كله في عملية الرضاعة الصناعية وتعقيم الأدوات قبل الوجبة وبعدها ، وإن استطاع هذا فما يستطيع أن يقوم بسواه من مطالب الحضانة . وهو لا يأمن خادمة جاهلة على القيام بهذه العملية كلها ، وهو لا يستطيع أن يجلب مرضعا من الريف لأنها ستأتي له بطفلها إن لم تجئ بأطفال آخرين أكبر من طفلها الرضيع في دور الحضانة ، بل لقد اشترطت عليه إحدى المراضع أن تحضر معها زوجها كذلك ! . وهو لا يستطيع أن يحضر مرضعا من المدينة تتقاضى مرتبا ضخما لا يقوى عليه . فضلا على أنها لا تستطيع أن تقضي طول الوقت مع طفله . وفضلا على أنه أعزب ولا يجب أن يؤوي في داره سيدة قد تكون في سن الشباب !

فلما أعيته الحيلة من هذه الناحية عمد إلى ملاجئ الأطفال المصرية فأبت قبول الطفل إلا أن يحتسب لقيطا ، أي إنها رفضت كفالته مع نسبته لأبيه الذي أظهر استعداده لأداء أجر معقول عن هذه الكفالة ، ولكنه لم يكن مستعدا لتنازل عن أبوته لطفله ، ولم يكن مستعدا لإيذاء هذا الطفل في نسبه وكرامته وهو ابنه من زواج شرعي صحيح !

وقيل له : إن هناك ملاجئ أجنبية أنظف وأكثر عناية بصحة الأطفال وأخلاقهم من هذه الملاجئ التي لا تؤدي إلا إلى قصاء ، ولا تريد أن تعترف بحقوق الآباء ، ولكنه علم في الوقت ذاته أن تلك الملاجئ إنما أنشئت للتبشير ، وهو حريص أن ينشأ طفله على دينه .

تلك هي الحالة التي يشكو منها هذا الزميل ، ولا شك أن لها أمثالا بالمئات أو بالألوف وجميعها لا تجد علاجا ، ولا يجد المبتلون بها ملجأ لهم ولأطفالهم من هذا التعب الدائم وتلك الحيرة المؤلمة ، فكيف جاز أن يكون هذا هو الواقع والا يوجد في مصر ملجأ أو مأوى لأمثال هؤلاء الأطفال ؟

إن هـذه المشكلة فرع من مشـكلة الطفولة كلها فى مصر ، فليس على ظهر الأرض من الأمم المتمدنة من يهمل مسألة الأطفال برمتها كما نهملها ، ولست أدرى كيف لم يفكر المسئولون عن مثل هذه الشئون مع وجود مثل هذه الحالة وتعدّدها ، ووجوب العمل على إيجاد حل لها ؟ إن الأمر ليبدو عجيبا فى بلد تموت فيه الأمهات سـنويا بالألوف فى أثناء الوضع وبعده بسبب نقص مراكز رعاية الطفل ، وعدم العناية بصحة الحاملات وسـوء التغذية والنظافة فى أثناء الحمـل والوضع ، والفقر والجهل اللذين يشملان تسعة أعشار الأمة .

فالمشكلة بسبب ذلك كله تجبه الأنظار وتطرق الأبواب وليست مستخفية ولا ضيقة الحدود ، ولذلك يبدو عجيبا ألا يوجد فى طول البلاد وعرضها مأوى للأطفال فى مثل هذه الحالات المتكررة الكثيرة العدد .

وقد يعتذر عن هذا التقصير ، كما يعتذر عن ضروريات كثيرة بعدم وجود المـال ، ولكن إيجاد مأوى لهؤلاء الاطفال عمل يمكن عدّه تجاريا مربحا ، فكثير من الآباء ميسور الحال ويستطيع أن يؤدّى عن كفالة طفله مبلغا معقولا يصل الى أربعة جنيهات فى المتوسط كل شهر أو ثلاثة متى ضمن الإشراف الصحى المنظم ونظافة المآوى والمراضع وحسن العناية بالطفل الذى يودعه بين أيديهن .

و إذن تستطيع وزارة الصحة ، كما تستطيع الجمعيات المنظمة أن تنشئ هذه المآوى وتجهزها بالأدوات اللازمة للرضاعة الصناعية بوساطة الحاضنات ، أو بالمراضع الادميات بعد الكشف على صحتهنّ وعلى ألبانهنّ وضمان وجود المواد المغذية فيهـا ، وتوفر لهنّ الملابس الصحية النظيفة والغذاء الجيد والفراش المريح وتنقدهنّ الأجر المناسب . وستجد حينئذ عشرات من المرضعات يقبلن هـذا العمل الطبيعى المربح ، كما تجد مئات الأطفال الذين يرغب أهلوهم فى إيوائهم وكفالتهم مدّة الرضاعة .

ثم تجعل للآباء والأهل حق زيارة أطفالهم مرة فى كل أسبوع مثـلا ليطمئنوا عليهم ويرضوا عاطفتهم ، ويتابعوا حياة أطفالهم وصحتهم .

وأعتقد أن وجود هذه المآوى واشتهارها بالعناية والنظافة سيجذب إليها عددا من الأطفال غير الأيتام ، فكثير من الأمهات قد يرغبن بسبب سوء صحتهنّ أو مشاغلهنّ العائلية أو نقص المواد المغذية فى ألبانهنّ ، إيداع أطفالهنّ مدّة الرضاعة ، كلها أو بعضها فى هذه المآوى المأمونة ويجدن من السهل أن يؤدّين أجر الرضاعة والحضانة عدّة شهور أو عاما من عامى الرضاعة .

على أن هناك حالة جديدة ينبغى الالتفات إليها، وهى حالة الأمهات العاملات، فالحركة الصناعية عندنا آخذة فى النمو، وهى تضم كثيرا من العاملات وستضم أضعافهن فى المستقبل القريب، فمن الخير أن نحتاط لهذه الحالة قبل استفحالها وشقوة الأمهات العاملات بأطفالهن الرضع .

وفى كل بلاد العالم المتمدين توجد هذه المآوى التى تتسلم الأطفال من أمهاتهن فى وقت العمل، ثم تسلمهم لهن بعد انقضائه، وبذلك تستطيع المرأة أن تساهم فى نفقات الحياة المنزلية بالعمل فى سهولة ويسر، وهى مطمئنة على طفلها عالمة بأنه بين أيادى رحيمة قد تكون أكثر منها خبرة بشئون الأطفال .

ونحن ننشر هـذه الكلمات، وفى يقيننا أن وزارة الصحة أو إحدى الجمعيات ستبادر بعلاج هذه الحالة، وأنها ستبدأ عن قريب بانشاء المأوى الأول للأطفال الذين لا يريد لهم آباؤهم أن يحسبوا لقطاء ولا يريدون لهم كذلك أن ينشأوا على دين غير دينهم فى ملاجئ المبشرين.

* * *

ثم نخرج من هـذه الدائرة الضيقة فيما يختص بالأطفال إلى الدائرة الواسعة التى تشمل مشكلة الطفولة المشردة كلها؛ فقد قامت الحكومة بإنشاء بعض الملاجئ للأطفال المشردين كما قامت بعض الجماعات المصرية والأجنبية باقتتاح بعض النوادى؛ ويمكن أن نضم إلى جهود الملاجئ والنوادى جهود إصلاحية الأحداث .

إلا أننا نجد مدينة كمدينة القاهرة لا تزال تموج بالأطفال المشردين صبية وصبيات بعضهم يحترف التسول، وبعضهم يتظاهر ببيع أوراق النصيب، أو أنواع الحلوى القذرة وبعضهم يقوم بجمع أعقاب السجائر؛ والجميع صفر الوجوه غائرو العيون عراة الأجساد، قذرو المنظر رثيثو الهيئة، كل فرد منهم يتراءى وصمة فى جبين الوطن بل فى جبين الانسانية ؟

فماذا صنعنا لهؤلاء جميعا ؟

إن وراء بعضهم قصصا إنسانية أليمة ولاسيما بعض البنات المشردات، قصصا يعرف عنها قسم الخدمة الاجتماعية بهذه الوزارة الشىء الكثير، مما تتقطع له الأكباد ويندى له الجبين. فماذا صنعنا لهم ؟ وماذا وضعنا من سياسة شاملة لا تبقى هذه القطع الآدمية المحطمة فى الشوارع والطرقات؟

يخيل إلى أننا لم نصنع شيئا، وكلما أعددنا مشروعا من المشروعات وقف المال عقبة فى الطريق بينما الأموال تبعثر بلا حساب فى الرفاهة والكماليات !

ولم تستنفد الحكومة كل ماتستطيعه فى هذا السبيل . فلا تزال تملك أن تضاعف ماتبذله من جهود ومن اعتمادات فى هذا السبيل ، ولكن هناك مورداً أساسيا لمثل هذه الخدمات الاجتماعية لم يستغل حتى الآن ، هذا المورد هو التبرعات السخية التى يجود بها كبار الأغنياء والمولين فى جميع بلاد العالم المتمدين إلا فى مصر التى تريد أن تعد نفسها قطعة من أوربا منذ أكثر من نصف قرن من الزمان !

إن أوربا التى تتناحر اليوم وتتقاتل ، والتى نقف نحن نتفرج بتناحرها وتقاتلها ونكيل لها التهم كيلا عن الوحشية والقسوة . أوربا هذه قد عرفت واجبها منذ أجيال نحو الأطفال والعجزة والمرضى والمحتاجين للخدمة الاجتماعية على العموم ، وقد أدت هذا الواجب كاملا فاستحقت أن تنعت بالتحضر وبالمدنية .

فعلينا قبل أن نلصق أنفسنا بها ، وقبل أن نلومها ونتقدها ، أن نؤدى واجبنا الإنسانى تجاه المشردين من أطفالنا على الأقل ، وهو أول واجبات الإنسان لبنى الإنسان !

طبعت بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ١٣ من ربيع الثانى سنة ١٣٦٠
(٢٩ من أبريل سنة ١٩٤١) ط

مدير المطبعة الأميرية
محمد بكرى

الطبعة الأميرية ٤٢٤٨٣-١٩٤١-٥٠٠٠